أن يتفوّق على من نظموا في هذا الفنّ قبله ، كما أنه أراد أن يستَدْرِك على من سبقوه أنواعاً من البديع لم يذكروها ، وقد التزم أن يُوَرِّيَ في كلّ بيتٍ باسم النّوع البديعيّ الذي يأتي بالبيت شاهداً عليه ، ولا شكّ في أن ذلك حَمَله على كثير من التكَلُّف ، ومع ذلك فقد كان مَزْهُوا بعمله ، لا يكُفُّ عن نَقْدِ من سَبَقُوه وإبرازِ تفَوُّقِهِ عليهم .

والحقيقة أن القصيدة نفسَها ليست في مستوى « بديعية العِمْيان » ، من حيث كونُها في المديح النّبويّ ، غير أن الذي منحها قيمة كبرى في تاريخ الأدب العربيّ ، كان الشّرحَ الذي صنعه لقصيدته وهو كتابُ الخِزانة ، وفي هذا الشّرح يُبَيّن أنواع البديع التي يُعَدِّدُها ويُكْثر من الشّواهد الشّعريّة والتّعليقات النّقديّة عليها .

ومطْلَعُ بديعيّةِ ابن حِجّة :

لِي في ابْتِدَا مَدْحِكُم يا عُرْبَ ذِي سَلَم بَرَاعَةٌ تَسْتَهِلُّ الدَّمْعَ في الْعَلَم

وهذا المَطْلع وحدَه يمثّل لنا طريقة ابن حِجّة في قصيدته ، فهو يتحدّث عن براعة الاستهلال في المطالع ، ثم يعمل على شرح المقصود من هذا المصطلَح في الشّرح ، ويمثّل له بأمثلة كثيرة ، إلا أنه يُصِرُّ على أن يُقْحِم في البيت نفسِه المصطلَح البلاغيّ أو ألفاظاً مشتَقّة منه توحي به ، كما فعل هنا حينما قال « براعة تستهلّ » ، غير أن البيت أتى في غاية من التّكلُّف والضّعف ، وهذا من جناية النّاحية التّعليميّة على الشّعر ، والغريب أننا نستشِفُّ من شرح ابن حِجّة جَودَةَ ذوقه في اختيار الشّواهد على ما يورده من ألوان البديع ؛ فالكتابُ من هذه النّاحية مُمْتِعٌ حقا ، ولكن هذا الذّوق خانَهُ في نظمه هو ؛ إذ أتى هذا النّظْم مُهَلْهَلاً ركيكاً ، أقربَ إلى السُّخْف ، ومع ذلك فهو لا يكفُّ عن الإدلال بشعره والتّمَدُّح به ، وادّعاءِ أنّه فاق به كلّ من تقَدّم .